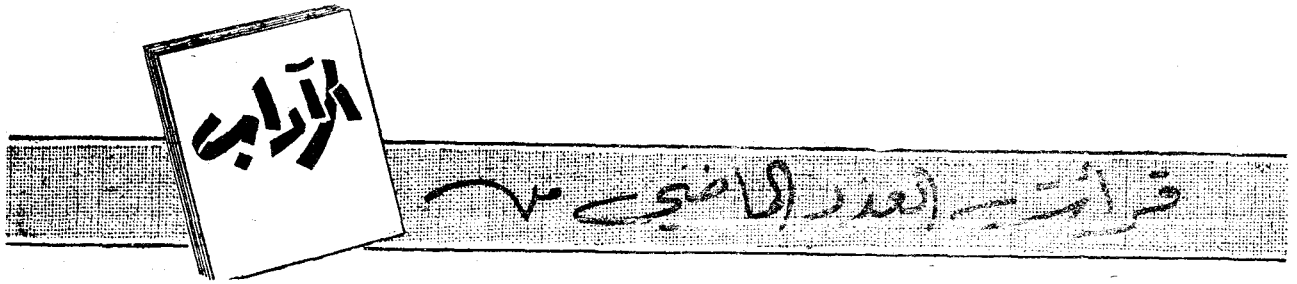

الأبحاث

بقلم الدكتور عبدالله عبد الدائم

١ ــ مراحل اليقظة العربية الاخيرة

في هذا القسم الثاني من «محاولات في فهم التاريخ المعاصر» يقدم الاستاذ عبد اللطيف شرارة تحليلا تاريخيا للمراحل التي مر بها العرب منذ بداية انهيار الدولة العربية . فيشير الى اثر الشعوبية واخلاط الترك والمغول في تقهقر هذه الدولة ، والى تدخل الاستعمار الغربي منذ ايام الحروب الصليبية . كما يشير الى الغفوة الطويلة التي غشيت العرب في ظل الطغيان العسكري العثماني ، ثم الى موقف العرب من الحلفاء ايام الحرب العالمية الاولى وغدر الحلفاء بهم بعدها ، وينتقل بعد ذلك الى الحديث عن بداية اليقظة العربية ، على اثر هذا الغدر ، ويعرض لنقائص هذه اليقظة في فترتها الاولى ولما تتصف به من كسل روحي ونعاس اجتماعي وبلبلة فكرية ، ويصل به المطاف الى الحديث عن استكمال هذه اليقظة وخصائصها وبواعثها بفعل الحوادث المتتالية التي مرت بالعالم العربي ، لاسيما بعد الحرب العالمية الثانية . ويقف وقفة اخيرة عند الانطلاقة الجبارة التي حققتها اليقظة بعد قيام الثورة في مصر ، وبعد تبني سياسة عربية قائمة على اساس ثقة العرب بأنفسهم ، وههنا يبين الدور الاول الذي لعبته قيادة عبد الناصر ، وكيف اصبح نقطة المركز في دائرة الكرامة العربية . ويقدم لهذا البطل العربي اعمق وصف حين يصفه بانه «مرب للشعب» . ويبين ما كان لاستيقاظ الكرامة العربية على يده من اثر في الانتفاضات الكبرى التي تمت في دنيا العرب ، وعلى راسها الوحدة بين القطرين المصري والسوري وثورة العراق والسودان .

وهذا التحليل التاريخي الذي يقدمه الاستاذ عبد اللطيف شرارة وصف موجز دقيق لعوامل اليقظة العربية الحالية وربط لها بأصولها وابراز لاهم معالمها .

٢ ــ راي لميخائيل نعيمة في رواية « الخندق الغميق »:

كلمات موجزة يرسلها الكاتب الكبير الى الدكتور سهيل ادريس ، يحدثه فيها عن انطباعاته لدى قراءة روايته الجديدة « الخندق الغميق » .

وحري بهذه الرواية دون شك ان تثير اقلام الكتاب ، فهي قصة صراع الجيل ، جيلنا الذي عرفناه ، مع التربية التي اراده لها الجيل السابق . وصراع جيل لاحق مع جيل سابق امر واقع في كل مكان ، وصراع المراهقين خاصة مع القيم التي يجدونها في اسرتهم وبيئتهم صراع بدهي تؤيده سائر الابحاث العلمية التي تتطرق الى مراحل الحياة النفسية لدى الانسان والحديث عن «الاباء والابناء» غني دوما ، لانه تصوير بدهي لمشكلة انسانية قائمة ابدا ... وهو اعمق دوما من الظاهر الذي يعطى له : فالامر ليس في جوهره مجرد ثورة يقوم بها المراهق على اسرته ومحيطه ، ولا هو مجرد استمساك بالعادات المألوفة يمارسه الاباء على الابناء . انه اكثر من هذا واعمق من هذا . وقيمته تتجاوز هذا الجانب الظاهر منه . انه صراع المراهق مع ذاته ، مع « اناه الاعلى » على حد تعبير مدرسة التحليل النفسي . فالمراهق في هذا الطور يحاول ان يبني قيمته الخاصة ، يحاول ان يجد سلّم القيم الخاص به ، وهو بعد غر ، ولكنه عامر بوثبة الحياة . انه لن يتكون نفسيا ككائن مستقل وكهوية بينة ما لم يعرف ان يتحرر من العلائق « الاوديبية » التي تربطه باسرته على حد تعبير اتباع مدرسة التحليل النفسي ايضا . وهو لن يغدو انسانا سويا ما لم يجاوز مرحلة الشبه بالاب التي كان يحياها خلال الفترة السابقة على المراهقة ، والتي كان يحيا من خلالها عادات المجتمع واعرافه. ومحاولة المراهق هذه اول مغامرة كبرى يقوم بها في سبيل اهتمامه بذاته، وفي سبيل التعرف على مصير الانسان ، عندما يقذف به وحيدا في هذا الكون ، يغالب ويغالب .

وموطن الضعف في موقف المراهق هذا يرجع في الواقع الى ازدواج مشاعره . انه يريد ان ينطلق مع قيم جديدة ، ولكنه ما يزال مشدودا ، بحكم تكوينه خلال سنوات الطفولة كلها ، الى القيم التي الفها وهو يود ان ينطلق مشمرا نحو تقويم جديد للاشياء ، ولكنه لا يستطيع مع ذلك ان يكون كائنا فاقد الجذور ، فاقد الصلة بمجتمعه وبيئته . ان الصراع في الواقع بينه وبين نفسه ، قبل ان يكون بينه وبين غيره . وما« الاخر» هنا الا اداة لامتحان الذات .

ومن هنا كانت التجربة التي يصفها الدكتور سهيل ادريس في كتابه تجربة انسانية عامة . الا ان هذه التجربة الانسانية العامة تتلون دوما بلون البيئة التي تجري فيها . ولهذا كان طبيعيا ان تتلون في رواية الدكتور سهيل بلون البيئة العربية المسلمة في لبنان . والحق ، ان هذه التجربة الشاقة التي يعانيها كل مراهق في اي بلد ، تجربة التعرف على الحقيقة ، والمغامرة في سبيل اكتشافها ، تزداد مشقة وقسوة في بلاد كبلادنا . فقد يخفف منها في بعض البلدان الاخرى تفهم الاباء لحقيقتها ، كما يخفف منها ضعف الرقابة الاجتماعية في البلدان الكبرى وفي المجتمعات الحرة . اما في بلادنا فالصراع بين « القديم والحديث » يتجاوز هذه الظاهرة الانسانية الناجمة عن تطور الفرد ، نعني ظاهرة المراهقة ، الى ظاهرة اوسع واشمل ، اذ يرتبط بالانقلاب الواسع الذي يتم في المجتمع نفسه والذي يقسمه الى جيلين قسمة حادة صارمة . واعتقد ان علينا في حكمنا على رواية الدكتور سهيل ادريس الا ننسى هاتين الحقيقتين معا : نعني ان هذه الرواية صراع الانسان كانسان مع ذاته في طور المراهقة ، كما تمثل في الوقت نفسه صراع جيل مع جيل اخر في بلادنا الثائرة . وادراك هاتين الحقيقتين يجعلنا نضع الرواية في مقامها الصحيح . اما اذا نظرنا اليها من جانب واحد دون اخر ، فقد

نتجنى ونفرط في ادانتها .

لو نظرنا الى الرواية على انها مثال الصراع ، جيل مع جيل ، لوجدنا دون شك انها مقصرة عن الغاية ، لا توفي هذا الصراع الحاد العميق حظه. ولو نظرنا اليها على انها وصف الانسان مع ذاته ومع قيمه في طـــور المراهقة ، بغية اكتشاف قيم جديدة ، لرأينا ايضا ان الرواية لا تستغرق هذا الجانب ولا تنعم في دقائقه . اما اذا نظرنا اليها كحادثة واقعية ، تصف وصفا طبيعيا الصراع المزدوج الذي يقوم في نفس المراهق حـين يريد ان يكون ذاته اولا وحين يريد ان يقوم الجيل القديم ثانيا ، لاستطعنا ان ندرك بعض الفتور الذي فيها .

فسامي مراهق يقبل على الحياة ، ويريد ان يرسم قيما جديدة لنفسه، ولكنه مغمور في الوقتنفسه بقيم تفوقه وتفوق سنه،قيمالمجتمع منحوله، قيم تلك الاسرة المفرطة في المحافظة . وعسير عليه ان يتلكأ ، وعسير عليه ان يقف موقف البطل الواعي . ان نزوعه الانساني الى التحرر معطل بنزوعه الانساني ايضا الى ان يتقمص اسرته ومجتمعه ...

وظني ان هذا الضعف الذي يراود سامي ، نتيجة لتنافي هذين العاملين واضعاف احدهما الاخر ، هو جوهر القصة ، وهو حقيقتها . وهو على اية حال ضعف واقعي عرفه اكثر مراهقينا . ولا يغير الواقع في شـيء ان نخرج من سامي بطلا يجاوز كل الحدود التي رسمت له وينطلق مـن حدود عمره وحدود مجتمعه مجاوزا في هذا كله حدود الممكن . ان قيمة هذه الرواية في صدقها وواقعيتها ، في صدق تعبيرها عن ضعف سامي امام مهمته الجديدة ، عن قلقه ، عن ترجحه بين ذاته ومجتمعه والانسانية. هذا هو الجانب الاصلي الذي رايته جديرا بالبحث في هذه الرواية . اما الجوانب الاخرى فلا سبيل الى الحديث عنها في هذا المجال . ومن الغلو حقا ان ادع في هذا المقام مقال الكاتب الكبير ميخائيل نعيـــمه ، لاستطرد هذا الاستطراد الطويل . ان كاتبنا يبارك هذه الخطوة الجريئة التي اقبل عليها الدكتور سهيل اذ اقبل على كتابة روايته . ويرى فيهـا وجها من اوجه انطلاق جيلنا الجديد نحو المعرفة والحرية باوسـع ما فيها ، ومثالا عن التوق العميق والاشواق الملحة الى القيم الانسانية بكل ما فيها من حرية وجرأة وحياة . انها عنده ـ وهو في قلب الصواب ـ رمز لانطلاق الحياة ، والحياة العارمة الحرة ، في صدور ابناء الجيل .

والحق ان الاقدام على مثل هذه الترجمة الذاتية مغامرة صادقة ،وتلمس جدي للحقيقة ، ولعل قسوة المغامرة هي التي اكرهت الدكتور سهيـل على ان يقصر عن مداها ، فلم يذهب فيها الى النهاية ، ولم ينس التقية والحذر ، ولم يطل التحليل والتأمل ، وهو معذور في ذلك اشد العذر .

٣ ـ الخندق الغميق ومدى تعبيرها عن تمرد الجيل :

وهذه النقطة الاخيرة تنقلنا مباشرة الى ملاحظات الاستاذ محيي الديـن صبحي . ومن العسير ان اعرض لكل ما جاء فيها . واعتقد انني قدمـت فيما سبق جوابا على كثير من تساؤلات الاستاذ محيي الدين . واعود فاقول ان الرواية ليست في نظري تعبيرا عن تمرد الجيل الجديد ، بقدر ما هي تعبير عن واقع الموقف النفسي لجيل مراهق يتلمس الحقيقة مـن خلال ضباب مجتمعه واسرته ونفسه . ولهذا لم يكن هذا التمرد تمردا بالمعنى الصحيح للكلمة . والاستاذ محيي الدين على حق حين يأخذ على الرواية انها لم تعن بالتمزق الفكري والصراع الداخلي والشكوك التـــي عصفت في قلب المراهق ، ولكن مرد ذلك الى ما ذكرته منذ حين ، اي الى قسوة المغامرة واضطرارها الى الوقوف عند حدود لا تتعداها . كما ان مرد ذلك الى شيء اخر اكثر ايجابية ، وهو ان المراهق نفسه ضعيف ، ضعيف ضعف كل انسان في موقفه ، تشده مؤثرات متباينة متنازعة ،فلا يقوى على مواجهتها ، ويفر الى نوع من السلوك العملي الذي يتجنـب طرح المشكلة على الصعيد الفكري ويكتفي بحلها عن طريق حدسه وذوقه السليم ، وعن طريق بذور الافكار التي ستتفتق فيما بعد ، عندما يعـي ذاته وعيا اعمق ، ومن هنا كان « الحي اللاتيني » تتمة طبيعية « للخندق الغميق » .

٤ ـ « في قضية الدكتور جيفاغو »

لقد عرفت الضجة التي قامت حول كتاب « باسترناك » في قلـب اوربا ، اذ كنت خلال تلك الفترة بباريس . وقرات الكثير مما كتب حول هذا المؤلف ، واشتريته ولكنني لم اجد الوقت اللازم لقراءته حتى الان . ومن هنا كان نقدي ناقصا يعوزه العنصر الاساسي من عناصر البحث .

اما الاستاذ رئيف خوري فينصب حديثه على جانبين اساسيين :

الاول انه يرى في منح باسترناك جائزة « نوبل » نوعا من الدعاوة السياسية ، ويتمنى ان يتخلص مقدرو مثل هذهالجائزة الانسانية الكبرى من هذه المؤثرات البعيدة عن الانسانية .

والثاني انه يستنكر موقف الادباء السوفياتيين حين استعدوا الدولة على باسترناك ، ويرى في ذلك طعنا لحرية الفكر وحربة في اساليب جلاء الحقيقة . ويعتقد ان مثل هذا الموقف « اثر مترسب من ذهنيةتكونت في الامس ثم فقدت اليوم سببها وظهر ضررها ».

وهو في حديثه كله يبدو وكما هو دوما ، نصيرا للحرية الفكرية ، ويتمنى ان يجاوز الاتحاد السوفياتي هذه المرحلة من تقييد الحريات ، ويأمل ان يأتي يوم في ذلك البلد « يستطيع فيه كاتب بملء الحرية ،في جريدة سوفياتية او مجلة او كتاب ، ان ينقد الحكام السوفياتيين وهم في سدة الحكم » .

ونحن جميعا معه عند هذا الرجاء . والعالم كله يرتقب منذ امد طويل مثل هذه الامنية . ولكن من حقنا ان نسائل الى اي حد يمكن ان تتحقق مثل هذه الامنية ضمن البنية العامة للنظام القائم في الاتحاد السوفياتي؟ وهل تقييد الحرية في ذلك البلد عرض زائل ام جزء لا يتجزأ من منطق نظام بكامله ؟ ان الشيوعية تنظر دوما الى المرحلة التي هي فيها على انها مرحلة سوف تجاوزها الى مرحلة الشيوعية الحقة ، وتعد التدابير المتخذة في المرحلة الحالية ضرورات مؤقتةلا بد منها للوصول الى المجتمع الشيوعي المطمئن . ولكن من حقنا ان نسائل الى اي حد ما يزال الامل قائما في ان تستطيع الشيوعية الخلاص من كل التطور الحي الذي مرت به ، لتعاود ادراجها الى شيوعية مكتوبة موضوعة على الرف . وان صح ان هذا ممكن ، من حقنا ان نتساءل : هل من الجائز التضحية بانسانيـة حاضرة ، بانسانية حية ، في سبيل الوصول الى انسانية جديدة ، انسانية مزعومة ، لسنا واثقين البتة من امكان الوصول اليها ، واغلـب الظن انها غدت مبررا لارتكاب كل الاخطاء مع الانسانية الحالية ؟ وهل من الممكن ان نصل الى حرية الانسان على انقاض حريته ؟

ان بناء الانسان الاكمل تربية جاهدة ، لا يمكن ان تترعرع الا في جـو الحرية .

٥ ـ « يقظة العرب وامل البشرية »

في هذا المقال المدروس العميق يتحدث الاستاذ ذوقان قرقوط عن

موقف العرب تجاه المعسكرين المتناحرين ، وعن أصالة موقفهم حين اتخذوا الحياد الايجابي قدرا لهم .

وهو يتحدث حديثا دقيقا عن مناعة القومية العربية على الاستعمار ومغرياته وعن عوامل هذه المناعة . ثم ينتقل الى الحديث عن المعسكر الشرقي ونظامه ونشأة هذا النظام وتطوره ، مبينا تلك الحقيقة وهي ان ماركس لم يكن « نبيا » ولا « عالميا » في كل ما قال ، مشيرا الى عدم تحقق النبوءات الماركسية المتصلة خاصة بالانقسام المطلق الذي تصوره بين طبقة الرأسماليين وطبقة العمال . وقد بين بيانا جميلا كيف وقع الماركسيون انفسهم في احبولة المغالطات نفسها التي اخذوها على اصحاب المذاهب الغيبية ، فحاولوا بكل الوسائل التدليل على عصمة ماركس ، وفسروا الاشياء قسرا لتدخل في اطار النبوءات الماركسية . ويبين الكاتب في النهاية كيف ان مصير الانسانية اليوم ان كان بين ايدي المعسكرين المتنازعين ، فان انقاذ الانسانية بات بعيدا عنهما . وقد اجتازت الانسانية مرحلة المناضلة بين النظامين الشرقي والغربي وتقدير عدالة احدهما على حساب الاخر » .. وان الخطأ كل الخطأ في ان نحسب اننا بين قرني الاحراج ، وحربتي القدر : فاما شرق واما غرب . ومن هنا يأتي معنى الموقف الحي الذي تتخذه البلاد العربية اليوم ومعها كتلة الشعوب الاسيوية الافريقية ، موقف الحياد الايجابي . فهذا الموقف تعبير اصيل اولا عن طبيعة القومية العربية وعن معنى تاريخها ، وهو ثانيا تعبير عن تجربة الانسانية كلها ، بل تعبير عن نزعة البقاء نفسها ، هذه النزعة التي تدفع فكرة الحياد الايجابي بين المعسكرين الى الوجود ..

ومن العسير ان نوفي المقال حقه من التحليل والتلخيص ، وهو بحق جدير بالتأمل والدرس ، فيه وصف دقيق لتجربتنا العميقة امام المعسكرين وللبواعث الانسانية والقومية الاصيلة التي ولدت فكرة الحياد الايجابي .

٦ ــ الامير عبد القادر : بطولته وشعره :

في هذا المقال يكشف صاحب كتاب « الثورة الجزائرية » عن جانب مجهول من حياة البطل العربي الامير عبد القادر الجزائري . فالقليل يعرف عن الامير انه شاعر وناثر . والقليل يعرف حظه من الثقافة وباعه في التاليف . وهذا ما يحاول ان يستدركه صاحب المقال . وهكذا يحدثنا عن ثقافة الامير على يد والده في كلية وهران ، وعن كتابه الفلسفي « المواقف في علم الحقيقة » الذي فقد من كتب الامير حين هاجم الفرنسيون قصره واحرقوا مكتبته الثمينة ، كما فعل « هولاكو » التتري بمكتبة بغداد . ثم ينتقل الى الحديث عن شعره الذي لم يجمع كله والذي يقسمه الى اربعة اقسام : شعر ما قبل الحرب التحريرية وهو شعر مفقود تماما النهمه الحريق ، وشعر الحرب التحريرية وفيه قصائد قصصية او حماسية يصف فيها مواقعه مع العدو ، وشعر المنفى الذي كتبه يوم نفاه الفرنسيون الى « امبواز » غدرا ، وهو شعر يغلب عليه الطابع الصوفي والتشوق ، واخيرا شعر ما بعد المنفى ، وهو الذي كتبه في مقامه الاخير بدمشق ، وفيه ينثقصائد الشوق الى اهله وبلده .

والاستاذ احمد الخطيب يستحق شكر القراء اذ يكشف لهم عن جانب من جوانب عبقرية الامير الكثيرة ، وعن طرف من حياة هذا العملاق الضخم. ولا غرابة ، فلطالما كان العمالقة في التاريخ مجيدين في اكثر الفنون ، تستوي عندهم صناعة السيف وصناعة القلم . اليست الحياة كلا لايتجزأ؟ او ليست تتفتح جميعة ؟ او ليست العبقرية اخيرا غرفة من نبعها ؟

٧ ــ الفن مادة الحياة :

هذا المقال الذي تعاود نشره الاداب جدير في الواقع بالنشر مرات . فهو استعراض عميق للمذاهب الفنية ، وللمذهب الذي ياخذ به الكاتب الاستاذ شاكر حسن سعيد .

وقوام هذا المذهب الحديث ، اوقل النظرة الحديثة للفن ، ان العمل الفني فعل مرتبط بالحياة ، وموقف يقفه الفنان من الحياة . وخلال هذه النظرة تزول المشكلات الجزئية التي كانت تطرقها المذاهب الفنية القديمة من التكعيبية والتعبيرية والسوريالية . فالتكعيبية كانت تعتبر المشكلة مشكلة البحث في الشكل الذي يتبدى فيه الشيء ، البحث في المناظر على حد تعبير ابن الهيثم . والتعبيرية تعتبر المشكلة على العكس مشكلة البحث في مضمون الشيء لافي حقيقة ظهوره ومنظره وابعاده . والسوريالية تبدأ بداية التعبيرية ولكنها تعتبر مضمون العمل الفني تجسيدا للاشعور .

اما النظرة الجديدة ، فتنكر هذه المشكلات جميعها ، وتعتبرها تزول من تلقاء ذاتها ضمن الموقف الحيوي الجديد الذي يعتبر العناصر التي تبحث فيها المذاهب السابقة وسائط ووسائل وادوات في خدمة الغاية الاصيلة وهي تجسيد حياة الفنان ومن خلالها حياة الاشياء . فالالوان والخطوط والموضوعات الخارجية كلها تغدو وسائل تشكيلية يبني الفنان منها الحياة .

وهكذا تمزق الحياة الظاهرية ويعاد تنظيمها من قبل الفنان تنظيما يعبر عن موقفه الذي يريد ان ينقله . وهكذا ايضا يحطم « الظهور الطبيعي » للاشياء ليتعقد في اطار جديد وهو اطار تجربة الفنان الحية التي يبغي التعبير عنها .

وبقول موجز ترى النظرة الحديثة ان الاشكال الطبيعية المرئية ليست سوى اجزاء واشلاء تكتسب معناها عندما نضعها في كيان عضوي جديد ، هو موقف الفنان من الحياة .

والمقال كما نرى مقال عميق ودقيق ، يعوزه بعض الوضوح وينقصه الاداء الطيع والاسلوب العربي المبين .

دمشق — عبدالله عبد الدائم

يصدر قريبا جدا :

ما هو الكتاب المقدس ؟

تاليف : دانيال روبس

ترجمة : مخايل الرجى

نشر : دار المكشوف ، بيروت

القصائد

بقلم يوسف غصوب(١)

احرج صديقي الدكتور سهيل ادريس ، موقفي عندما طلب مني ابداء رايي في القصائد المنشورة في العدد الفائت من مجلته « الآداب » . انا افهم ان يقرأ القارىء قصيدة تثير اعجابه فيتحمس لها ولا يسعه ان يكتم تحمسه فيشيد بها بين اصحابه او في مجتمعاته او يتناول القلم من تلقاء نفسه ويديج ثناءه ويرسله الى صاحب المجلة لحسن اختياره او الى الشاعر ليفضي اليه بما وجد من اللذة في تلاوة قصيدته . اما ان ياتيك صاحب المجلة ويقول لك : هذي قصائد اسألك ابداء رأيك فيها . فهذا مازق لا تخلص منه الا بالقبول او بالرفض . فاذا كان صاحب المجلة عزيزا عليك اضطررت الى مجاراته . وهذا ما كان بيني وبين صديقي سهيل . على ان الرأي في الشعر نسبي كما هي الحال في سائر الفنون الجميلة . فكل راي فيه يظل موقتا الى ان ينقضي الزمن الذي شهد ولادته . فان الزمن غربال قاس اذا وضع فيه الصنيع الفني تحرك وراح يعزل عنه جميع العوامل التي اسهمت لحين في تحبيذه او شجبه ، فلا يبقى منه الا العنصر الشعري الخالص . والعوامل التي تجعل من الشعر ، يوم نظم رائعة نادرة او بضاعة رخيصة ، هي كثيرة لا بد من ان تؤثر في الناقد ما لم يكن هذا الناقد مجردا منها جميعا وهذا ما يندر وجوده . ومن تلك العوامل البيئة والزمن اللذان صنع فيهما الشعر ، والحوادث التي رافقته واستعداد القارىء لتلقيه والمستوى الثقافي والفني عند الشاعر والقارىء وغيرها كثير نجتزىء بما ذكرنا منها . اما البيئة والزمن فقد يكون الشاعر من بلد غير بلد القارىء او من زمن غير زمنه فلا تجتمع لديه العناصر الكافية لتذوق الشعر على افضل وجوهه فما ينظم في الصين مثلا او في اميركا او العراق او مصر قد لا يكون له صدى في لبنان لعدم تلاؤمه وجو لبنان الطبيعي والثقافي. اما الحوادث الجارية في بلد من البلدان فقد تهيج شعورا في الشاعر والقارىء لا تهيجه في بلد اخر مما يذهب بكثير من قيمته الحالية ويضعضع الراي فيه . وكذلك استعداد القارىء فقد يكون غير متاهب لتلاوة الشعر من جراء مشاغله النفسانية او المادية او لانصرافه الى امور لا شان للشعر فيها ، فلا بد لمن يريد التلذذ بالشعر من جو هادىء تجتمع فيه الاسباب الداعية التي تذوقه والتمتع بايحائه وموسيقى الفاظه . ثم هناك المستوى الثقافي والفني ، فالقراء ولاسيما في عصرنا هذا يختلفون جدا ، فمنهم من ربي على الادب الكلاسيكي او التقليدي فلا يستطيب سواه ومنهم من اقتصر على علم النفس او الفلسفة او العلوم الطبيعية او السياسية او التاريخية فلا يرى متعة الا بما يمت بصلة الى الفرع الذي اختاره لنفسه . فلكل هذا ولغيره من العوامل الكثيرة التي لم اذكرها والتي تؤثر في القارىء وفي رايه عندما يطلب منه ابداؤه في قصيدة او شعر ، قد ترددت في النزول عند رغبة صديقي سهيل . لكنه قال لي : انت شاعر وهذا حقلك ...

هذا حقلي ، لكن ليس من شيء ادعى الى الشبهة من رأي شاعر في اخر . فلكل شاعر حقل ينبت فيه ازهاره ورياحينه ، ويعنى بها عناء يشغله عن حقول غيره . فاذا اطل عليها اطلالة ورأى فيها ما ينسجم مع منتجاته رضي عنها وقد يغتبط بها لاعتقاده انه من الذين يقتدى بهم، او ان طريقته هي الطريقة المثلى . اما اذا رأى فيها ما يشذ عن قاعدته او يناقضها اغتم ونفر وربما داخله شك في شعره او وجد في شعر غيره ما هو جدير باعجابه. فاذا لم يكن على خلق متين ولم تكن له الجرأة الكافية على الاعتراف به اغفله او تجاهله او حاول الحط من قدره بما يختلق من المزاعم وما يدلي من الادلة والحجج . فكيف يطلب والحالة هذه ، من شاعر ابداء رايه في شعر غيره ؟ اليس من الاجدر ان تعطى القوس باريها فلا يلجأ في النقد الا الى الاختصاصيين به فانهم كرسوا نفوسهم للنظر في الصنيع الادبي واظهار حسناته او سيئاته وارشاد القارىء في قراآته ، لا يرمون الى المناقشة ولا الى التحيز . هذا ما يفرض فيهم مبدئيا ، فان اخاوا خانوا مهمتهم ولا يلبث نفوذهم ان يضؤل والثقة فيهم ان تضعف .

وبعد هذا ، يقول قائل :

ـ لم تكلفت هذا العناء ؟

فاجيب : تكلفته لارضاء صديقي سهيل ثم للادلاء بهذه الاراء ، فاحط عني ثقلها . وقد يكون فيها ، على علاتها ، بعض الفائدة . ثم للاغراب عن نظرات في الشعر الحديث والقديم ، فاطيل هذا المقال ليصبح لائقا « بالآداب » هذه المجلة الضخمة ، المفرطحة الصفحات ، الدقيقة الحروف ، فان المادة الشعرية التي طلب مني نقدها ضئيلة لا تتطلب ، اذا حصر البحث فيها ، كلاما مسهبا . هكذا اذا لم يكن الناقد هو رجاء النقاش الذي تكلم في العدد الاخير من « الآداب » على ديوان « مدينة بلا قلب » فهذا الناقد لو كلفته نقد قصيدة لوضع لها كتابا برأسه جمع فيه كل ما يعرف عن الشعر منذ بدء الخليقة حتى يومنا هذا ، فذكر سقراط ومن عاصره من الفلاسفة والقدامى من الشعراء وطريقتهم في النظم وتحدث مليا عن الرومانسية والرمزية والسريالية وحللها جميعا، وتطرق الى تطور الشعر وتدرجه من مرحلة الى مرحلة واستشهد بالشعراء من اغراب واعراب وبسط لك مدى اطلاعه وغزارة مادته حتى لا يفوتك شيء من علمه . انا لا الومه في ذلك فهو غنى ينبغي لكل قارىء ان يطلع على ثروته الادبية ليقدره حق قدره ويقيم وزنا لكلامه ، غير انه، في نهاية حديثه المتع ، قد ابدى اراء شخصية في شكل الشعر القديم والحديث فقارن بينهما وانتهى الى القول بان للشكل الحديث ميزات لا يسع الشكل الكلاسيكي العربي التحلي بها . ومن هذه الميزات « التشخيص » وهو كما نقل الاستاذ محمود العالم « التعبير بالصور » ومنها وحدة القصيدة ومنها الحوار . فالتشخيص يزعم النقاش « ان هذا العنصر لم يكن في الامكان ان يظهر عن طريق القصيدة العربية القديمة ، وهي في مجملها شكل فني بدائي محدود الطاقة والابعاد ...» فكيف يسوغ لنفسه القول بان القصيدة القديمة « بدائية » على ما فيها من التنوع والفن وحسن الصياغة واختلاف الاوزان وعلى ما مرت به من العصور وما اجتازت من مراحل التطور وعلى ما تركت لنا من الروائع . اما ان شكلها محدود الطاقة والابعاد فهذا ما لا نرضاه للقصيدة الكلاسيكية ، فالشواهد على بعد مداها ونزعتها الانسانية اكثر من ان تحصى ، ففي الشعر العربي القديم والحديث ، بالرغم من شكله التقليدي ، روائع لا يحول وزنها ولا قافيتها الموحدة دون احلالها في مرتبة عالية . اما التعبير بالصور فان قصر فيه اصحاب الشكل

---

(١) هذا رأي شاعر لبناني كبير في قضية الشعر الجديد بالاجمال . وكما طلبت « الآداب » من الاستاذ غصوب ان يبدي رأيه في الشعر الجديد عامة وقصائد العدد الماضي بصورة خاصة ، فانها تفسح المجال طبعا للرد عليه .

التقليدي ـ وما اراهم قصروا ـ فهل يعزى التقصير الى الشكل ام الى الشاعر . ألا يستطيع الشاعر الشاعر ان يقول بشعر موزون مضبوط ما يستطيعه غيره في نثر شعري ؟

ويورد النقاش مثالا ، يدعم به زعمه ، قصة فتاة وفتى صورت فيها نفسيتهما وتباين المرمى بينهما ويقول : « لم يكن الشاعر القديم يستطيع ان يفعل اكثر من نظم هذا المعنى في مجموعة من الابيات المحدودة المباشرة » ولماذا لا يستطيع ؟ هذا ما يفوق ادراكنا .

ثم يقول ان التشخيص هو التعبير بالصور لا بالافكار وهذه الطريقة « تميز شعرنا الجديد عن الشعر القديم تمييزا جوهريا » قد يكون الشعر تطور في مراميه واهدافه ، على ان ذلك لا يجعل الشكل علة هذا التطور . فالشكل ليس امرا جوهريا في الشعر انما الجوهري ان يكون شعرا .

اما الوحدة في القصيدة فأمر مفروغ منه منذ مدة بعيدة . الا يرى الناقد ان الشكل الكلاسيكي قد تعرى من كل شيء لا علاقة له بموضوع القصيدة . واذا كان من شذوذ عن هذه القاعدة فمعظمه يكون في الشكل الحديث اذ يرخي الشاعر العنان لخياله « فيحشر » في قصيدة كل ماعن له غير آبه لغموضه او غرابته . وقد تغريه صورة فيدرسها حيث لا مكان لها .

ثم ينعي النقاش على الشعر القديم عجزه عن الحوار ولاسيما الذاتي منه فهذي بدعة ما سمعنا بها من قبل فمعظم الشعر العربي القديم حوار ذاتي .

اما وحدة القافية التي يقول انها تقيد الشاعر فما اهون حل هذا القيد فكثير من الشعراء الكلاسيكيين لا يلتزمون القافية الواحدة بل يتفننون في مزج القوافي وتداخلها وتنويعها دون الخروج على عمود الشعر الذي هو الهيكل الحقيقي له .

وعلى كل حال فانا لا ادافع عن الشكل القديم ولا عن الشكل الحديث بل ادافع عن الشعر ذاته ، فهات شعرا واجعل شكله كيف شئت . وقوام الشعر روعة الاداء واصالة النزعة الانسانية فيه ، فاذا تبقى شيء من هذا بعد نزع الطفيليات التي ترافقه من مرام سياسية واهداف دعائية واغراض خاصة ، كان شعرا والا ذهبت قيمته بذهاب اسبابها .

اما الان ، ولا مفر من نقد « القصائد » فاقول ان اول ما لفت نظري هو خلو « الاداب » الاخيرمن الشعر اللبناني ، الا اذا كان خليل حاوي لبنانيا ، غير ان قصيدته آتية من ضباب كيمبردج . وسائر القصائد الاخرى من القاهرة ونابلس وبيروت . غير ان قصيدة بيروت لشاعر غريب عن لبنان . ومما استرعى انتباهي ايضا ان الشعر يرتدي الشكل الجديد الا قصيدة واحدة التزم فيها صاحبها الوزن والقافية ، فهل ضؤل الشعر في لبنان ام ان الشاعر اللبناني ضنين بصنيعه لا يلقي به الى القراء الا بعد صقله وادماجه ورضاء نفسه عنه ؟ ومن الغريب ان الشكل الشعري الحديث لا يلاقي في لبنان الرواج الذي يلاقيه في مختلف الاقطار العربية ، على ان الشعر المنثور بدأ في لبنان من زمن بعيد مع جبران والريحاني ايام لم يكن له اثر في الادب العربي . فهل زهدفيه اللبنانيون لسهولته وقرب متناوله اذ لا يقتضي جهدا كثيرا ولا يضطر الى الامعان في الاختيار والضبط والاقتضابوحصر الصور والمعاني في الكلام الوجيز ، ام ان الشاعر اللبناني لا يرى الفن الا في الصعوبة ؟ على ان الشعر المنثور ، اذا كان شعرا حقا ، هو شاق، وعر ، لانه لا يرتكز على ايقاع الوزن والفة القافية ، بل يتكىء على روعته الذاتية ومتانة تعبيره . اما اذا لم يتوخ فيه الناظم الا السهولة وامكانية التوسع فلا يأتي الا بمقال صحفي كتبت جمله المقفاة او غير المقفاة على انفراد كل جملة في سطر بدلا من تتاليها كالنثر على السطر الواحد . فان كانت القافية المميز الوحيد من النثر كانت مقالات بديع الزمان والحريري من الشعر .

قلت ان هذه الطريقة سهلة ما لم يكن متبعها حريصا على الشعر فيها . فالشعر ليس له حدود معروفة ، فربة جملة تكون شعرية من غير وزن ولا قافية ولا كتابة على سطر مستقل ، فنشيد الاناشيد في التوراة شعر لا اشكال فيه مع انه منقول الى العربية ولم يحد الناقل عن معانيه الاصلية غير انه انغمس في جوه وجاء فيه بالجملة الشعرية التي لا تكسب روعتها من الوزن ولا القافية بل من الصورة والنفس والاقتصاد في الكلام وحسن اختياره .

وقد عن لي الان وانا اكتب ان اعطي مثلا على سهولة القول في شكل الشعر الجديد وخطر على بالي بيت من الشعر العربي هو كاف بذاته ليكون قصيدة وموضوعا للتأمل :

وهذا البيت الذي لا ادري من قاله هو :

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي انت فيها

فلو اردت ان اتوسع فيما يوحي الي هذا البيت لقلت مثلا :

مالك تفكر في الامس وفي الغد ؟
مالك والامس والغد ؟
انت ، وان كنت في شرخ الشباب
انت ، وان كنت في اهاب العافية
لا تدري ما يكون غدك
لا تدري ما كتب لك .

صدر حديثا

نزار قباني

شاعراً وإنساناً

دراسة وافية بقلم

محيي الدين صبحي

الثمن ليرتان لبنانيتان

قد تدركك الساعة فتهوي .
ألا أفغلت غدك ونظرت في ساعتك
ألا ملأت عينك بنور الشمس ؟
ألا ملأت عينك بأزهار الربيع ؟
ألا نشقت النسيم العاطر الصاعد من الوادي
ألا تمتعت بكل ما وهبك الله ؟
فاغتنمت كل سانحة وبارحة
والتقطت الجوز حين ينثر
وتناسيت البغضاء والحسد والانانية
واغتبطت بالجمال حيث كان
انت تسعى وراء الظل وتهمل ما تحت يدك من لذة ومتعة .. الخ..

هذا ضرب من التوسع قد يكون سخيفا . وقد يأتي غيري فينظر الى البيت غير نظرتي فيجعل منه موضوعا لعظة او حافزا على الجد والنشاط او اغراء بالمغامرة والمخاطرة . ففي هذا البيت مجال واسع للخيال غير انه بحد ذاته شعر مرح لم يمنعه اقتضابه ومتانة حبكه من حمل القارىء الى آفاق مختلفة بعيدة .

ولنعد الى القصائد . وقبل الخوض فيها أرى ان لا يحزن اصحابها او يفرحوا لرأي قد يكون مصيبا او مخطئا .

الناي وريح الرمل

هذه القصيدة لا ترضي لاول وهلة لكنك كلما عاودت قراءتها وانغمست في جوها تبينت من خلالها نفسا قلقة قد ارغمت على شيء وهي تأباه فتتصور ان قائلها طالب في جامعة يقضي نهاره بين الكتب والاوراق والمحابر والاقلام وهو لا يعلق عليها كبير جدوى انما همه ان لا تسطو عليه فتفقده ذاتيته وتقيد افكاره وتضعف ثقته بنفسه . فأحب شيء اليه التملص منها والتملص من الكذب على نفسه فيترك هذه الهنات التي هي كالمومياء لا حياة فيها ويعود الى الحياة الحقيقية حيث يجري الدم في العروق . وحيث حبيبته التي تغلي في رأسه ذكراها وتعزف له لحنا كئيبا تمثل معه الصور الفاجعة المؤلمة فيخيل اليه ان الحبيبة تقضي او كادت ولم تتمتع به ولا بملذات الدنيا ، وكل ذلك من جراء غيابه وانصرافه عنها الى مضاجعة الدفاتر والكتب التي لا حياة فيها . ومن تكون هذه الحبيبة ؟ اترى هي الشرق الذي يرزح تحت اعباء الماضي والخرافات البالية واصحاب المساخر الذين يرتدون ريش الطاووس ليستروا ما بهم من قباحة وضعف والتقاليد الواهية وغير ذلك مما يقيد الشرق ويرفع في وجهه السياجات دون الرقي والحرية الصحيحة فيود الشاعر لو كان بيده ريح غضوب يتصرف بها كما يشاء ، ريح يثيرها من الصحراء فتهب على الشرق وتقتلع كل ما فيه من رواسب ومفاسد وتفسح المجال لبناء جديد على تراب « بكر يزهو باعمدة الجباه ، يزهو بغابات المدن الصبايا ، لين ارصفة وجاه » لكن بينه وبين الباب الذي ينطلق منه ليقبض على الريح الغضوب « صحراء ن الورق العتيق وخلفها ، واد ن الورق العتيق وخلفها ، جبل من الورق العتيق . » .

هذه القصيدة المشحونة بالصور تتاجج نارا وتلتهب حربا بين شرف المرمى وبعده وقصر اليد عن بلوغه فهي صراع لا هوادة فيه يعانيه كل شاعر وكل انسان تؤلمه البشرية في حالتها الحاضرة . وارى ان الشاعر يأمل ان تكون العبارة اي الكلمة سلاحا له لخوض هذه المعركة العنيفة ، العبارة التي تخرج من قلبه وانسانيته وعقله لا العبارة التي يوحي بها الجن ، فقد ذهب عهد الجن وانقضى .

ويلي هذه القصيدة قصيدة ثورية ايضا انما ثورتها على الشعراء الذين « ينمو القمل في اشعارهم » وعلى المتاجرين بالديانة الذين يبيعون الله في المزاد . ويكتنف هذه القصيدة غموض كثير جاء عن قصد ، فان الشعراء الذين يذكرهم صاحبها فيها انقرضوا او كادوا الا اذا عنى بالشعراء كل متزلف متاجر بضميره كبعض الصحفيين الزائفين ومن لف لفهم .

اما « سيمفونية الزحف » فقصيد حماسي اقرب الى الفن الشعبي منه الى الشعر . ولا ادري ،عند تلاوتها ، كيف تصورت صاحبها يتقدم جمعا غفيرا فيلتفت اليهم من حين الى حين ويقول : رددوا ، يا شباب : من الف نهار .. فيرددون : من الف نهار .. الخ . وذكرتني هذه القصيدة باغنية لحنين كان لها في وقتها نجاح عظيم وهي :

شدوا الحبال ، يا ريس ..

والبحر جبال ، يا ريس ..

« الى نجمة الغروب » قصيدة كئيبة تشكو صاحبتها ملك عبد العزيز الى نجمة الغروب ما قاست من الالم لعدم تمكنها من البكاء لكن الله الرحمن الرحيم قد الهمها ان تأتي الى ضفة النيل فما ان وصلت الى الشاطىء الغربي ورأت الماء يجري حتى سرت الى عينيها عدوى جريان الماء فجرى دمعها بغزارة .

« اسطورة الوفاء » اول ما يتبادر الى الذهن عند تلاوة عنوان هذه القصيدة ان الشاعرة فدوى طوقان تورد لنا اسطورة كان للوفاء قسط وافر فيها . فاذا الامر عكس ذلك فان الشاعرة ضعيفة الثقة بالوفاء . فكان الاحرى ان تعنون قصيدتها « الوفاء اسطورة » فياتي العنوان اشعر واكثر ايحاء للكآبة التي تغمر القصيدة وتشيع فيها لحنا محزنا .

« الشمس خلف غيمة الخريف » حوار بين حبيب وحبيبته مما لا يشغل بالنا كثيرا الا اذا كان حسن فتح الباب يرمز في حواره الى شؤون خطيرة فاتنا ادراكها .

« الى عابرة » يخبرنا كمال نشأت في هذه القصيدة عن رؤيته صباح يوم جمعة من شهر مارس (لماذا مارس لا اذار ؟) فتاة جميلة بالقرب من قصر النيل . وقد بسط لنا كل هذه التفاصيل ليقول لنا اخيرا ان يديه خوتا من النقود فلا يستطيع التزوج بها . هلا فتش عن مكسب غير الشعر فربما استغنى وفاز بامنيته ؟

والقصيدة الاخيرة « زواج شاعر » قد نظمت على الشكل الكلاسيكي اي لها وزن وقافية ، لكن صاحبها يقضي معظم وقته مع القافية ويهمل زوجه فتلومه وتعتب عليه ونحن نرى ان الحق بجانبها .

يوسف غصوب